الحسناء

الجزء السابع — المجلد الأول

بيروت في ٢٠ كانون الأول سنة ١٩٠٩

اسبانيا

١

معهد العلم الحديث

الفي الرواية من يدك سيدتي فاقص عليك قصة حقيقية محورها المرأة والعلم وقطباها التعصب والظلم . تعالي معي فاحدثك ماشياً فتهوني كلامي مماشيه . نحن الآن في حي الاعيان من المدينة وهنا قصر الملك المامها وبالقرب منه المتحف الشهير الذي بناه احد الملوك الفاتحين . وفي هذا المتحف دار العلوم التي يؤمها الطلبة من كل حدب وصوب . من الشرق يأتون ومن الغرب ومن الجنوب ومن الشمال ليتلقوا العلم والفلسفة من امرأة عالمة حكيمة . اقف بك امام هذه الكلية العظيمة . كلية لا شرقية هي ولا غربية . اقف بك امام هذا المعهد القديم وهو معهد العلوم الحديثة الذي شيده الامراء وخلد ذكره المؤرخون والشعراء . ما ابهى هذه الرواقات وقد غصت بالطلبة من كل الاجناس والطبقات . وما اعظم هذه المكتبة وفيها ما يربو على الاربعمائة الف مجلد . ولكنها واسفاه ستوزع على الحملات بعد حين . ولا يعصى العلم على ابن العاصي ؟ ولا الاربعمائة الف

مجالاً لتستطيع ان تقف في وجه كتاب واحد . الله في خلقه وفي كتبه شؤون ؟ نعم سيد في نحن في مراتب التاريخ فلا يهولنك ما وراءنا وما أمامنا من الظلمات على اني اقف بك موقف النور المذرف دمعتين على المليار احدى نسائه العاملات

ليست الكنيسة اعظم ما في القصف العظيم بل هناك دوائر اخرى ستربنها فهذا المرصد الفلكي الذي يبعد الانسان عن الخرافات ويقربه من الله . وهذا المعمل الكيماوي حيث الماك نفسه كان يشتغل بضع ساعات في النهار باحثاً عن اكسير الحياة وهناك دار التشريح ولا اظنك تحبين ان تدخليها وقد تحبونين اذا اخبرتك ان هؤلاء الاطباء يشرحون الاحياء ايضاً من حكم عليهم بالاعدام ابتغاء التوصل الى الحقائق الطبية الراهنة . لا تكرهين . فقتل المجرمين خير من قتل الابرياء . تعالي فاريك جنينة الحيوانات وبستان النباتات حيث الطلبة يتعلمون من الامثال الحية على النبات والحيوان . ولا تظني ان التعليم في هذا المعهد العظيم ينحصر في العلوم الطبيعية فقط بل يتناول ايضاً العلوم الخلقية والروحية . فمثل كليات العلم كلها عمر هذه الخلائق والاناسيل مماً . وربما حقيقة تشمل الاوهام نورها . وربما اوهام بعض الاطباء تبعض بعضها في عش الحقائق . فقد نبغ في هذا المعهد العلمي المتشرعون واللاهوتيون والاطباء والفلاسفة والعلماء .

لا ياسيدتي ليست كلية أكسفورد هذه ولا معهد السوربون . انسا الان في باريس او في لندرا . انما نحن في المدينة التي ولد فيها العلم الطبيعي واللاهوت المسيحي تحت سقف واحد فتخاصما وتنازعا طويلاً وكان من شأنهما في قديم الزمان ما كان . انما نحن في قاعدة البلاد المصرية في باريس الزمان القديم في الاسكندرية على عهد الرومانيين . والقصف الذي وصفت فروعه العلمية هو الذي شيده بطليموس سوتر وابنه فيلادلفس وكان الملكان يدرسان ويعملان فيه كبقية الطلبة والعلماء .

المؤرخون متفقون في ان كلية الاسكندرية هذه كانت في زمانها اعظم معهد للعلم في العالم . كيف لا ومن مرصدها أرصدت النجوم والكواكب التي استنار بها فيما بعد علماء اوروبا الفلكيون . كيف لا وفيها رفعت فلسفة ارسطاطاليس الاستقرائية موضع العمل وكان من ثمارها ان معهد بطليموس هذا اضحى مهد العلوم الحديثة . ومن من علماء اليونان يذكر فضل ارخيمدس في الرياضيات ومن لا يذكر بطليموس وابولونيوس وهبارخوس في علم الفلك . ومن لا يعرف اقليدس ومبادئه في الهندسة التي يتعلمها الطلبة في المدارس حتى اليوم . وقد لا تعلمون ان ايراتوستينس وهو من علماء هذا المعهد ايضاً قاس الارض قبل علماء المأمون واكتشف شكلها الكروي قبل كوبرنكوس وغليليو . وان هيرو اخترع آلة البخار به قبل جون وات الانكليزي . وان ابيفيوس اول من اخترع ساعة مائية وان يوليوس القيصر بعث يطلب من هذا المعهد الاسكندري سوسيجينوس الفلكي ليصلح له الرزنامة الرومانية على الحساب الشمسي . فالمعهد الذي ينبغ فيه مثل هؤلاء العلماء العاملين لا شك خطيره والذين يأتون الدروس فيه هم ايضاً عظام

٢

الفيلسوفة العذراء

ومن هؤلاء سيدة في الفيلسوف ثيون الذي درس الرياضيات في القرن الرابع (سنة ٣٧٠ م) وراقب كسوفاً سنة ٣٦٥ م والف في الفلك والطبيعيات تآليف درست كلها . ولكن اعظم تآليف ثيون واعظمها ابنته البارعة هيباسيا . ولدت هذه الفتاة في الاسكندرية وقرأت العلوم على ابيها وكان لها ميل خاص في الرياضيات والميكانيكيات . وقبل ان وقفت حياتها على العلم والتعليم سارت الى آثينا وتلمذت هناك الشريعة والفلسفة ورافقت في المحاكم ونشأت نشأة عجيبة دلت على مقدرة عقلية

فيها تضاهي مقدرة اعظم الرجال . ولما توفي ابوها كانت تمكنت من العلوم وبرهنت في مواقف عديدة على تضلعها ورسوخها في الرياضيات والفلسفة فرقيت في العشرين من عمرها وهي عذراء الى منصبه وظلت تعلم في المتحف الاسكندري اربعين سنة فاح اخبراً عليها هالح الجهل والتعصب فقتلاها شر قتلة كما ستعلمين

هباسيا زينة نساء الاسكندرية في تلك الايام ورئيسة الفلسفة الافلاطونية وصديقة الامراء المحبين للعلم والعلماء ومرشدة الحكام ومدوة التعصب والخرافة . كنا نسمع بكليوباترا الملكة الداهية ولكن من منا يسمع بهباسيا العالمة العفيفة العذراء . في هذا المتحف الذي وصفته كانت تلقي دروسها على الالوف من الطلبة وفيهم الاحبان والاغبياء واللاهوتيون . في هذا المتحف كانت تعلم بافصح لسان واجلى بيان فلسفة افلاطون الجديدة التي تدعى في تاريخ الفلسفة « نيوبلاتونيزم » في هذا المتحف الذي شيده بطليموس رفيق الاسكندر أنارت هباسيا انواراً اطفأها الجهل والتعصب فظلت بعدئذ اوروبا تعمه في الظلمات احدى عشر قرناً

وقد كانت هذه الوثنية الفاسلة رائعة الجمال فصيحة اللسان شديدة العارضة سريعة الخاطر سديدة الرأي شريفة الشمائل والخصال . وحتى آباء الكنيسة يعترفون لها بذلك . على انها كانت تتعب فكرها عبثاً في مسائل قد تشغل الفلاسفة بعد الفيسة كما شغلتهم منذ الفين مضت . من اين والى اين ؟ فان هباسيا سيد في كانت تحاول حل هذا اللغز المظلم . ما هو العقل وما هو العلم وما هو الله ؟ في مثل هذه المسائل الخالية كانت الفيلسوفة الفذراء تلقي دروسها وخطبها . والحقيقة ان فلسفة الاسكندرية في ايام هباسيا وقبلها انما هي مزيج من فلسفات اليونان كلها كفلسفات المشائين والرواقيين والابيكوريين وغيرهم .

ومن تلاميذ هباسيا الذين حازوا شهرة في زمانهم سينيسيوس اسقف عكا

وقد بعث هذا الأب الفاضل رسائل عديدة الى ابنة ثيون البارعة فيها ثناء جميل عليها واعتراف بفضلها وحبها له . وهذه الرسائل لم تزل موجودة وفي احداها يستشير المراسل استاذته في عمل الاسترلاب ويقول انها كانت تميل الى علم الفلك والميكانيكيات اكثر من سواهما . وقد الفت كتباً في هذه المواضيع وشرحت كتب آبولونيوس ولكن ان الماس الذي جاء الاسكندرية بعدئذ لم ير فيها وفي الاوف مثلها كبير فائدة فوزعها كلها على الحمامات لتسخن على نارها المياه . ذلك منتهاه

قد شهد المؤرخون لهيباسيا الرتبة بالعفة والبراعة كما شهدوا لها بالفضل والعلم والحكمة . ولم يتفقوا في انها عاشت وماتت عذراء . واما ما قاله سوينداس في انها اقترنت بالفيلسوف إيزيدوروس فلا صحة لذلك . وقد قيل انه محض اختلاق وافتراء . والحاصل منذ البدء موجودون . فالاسقف سينيسيوس اول من اعترف بفضلها وعلمها . وعندما تعرف بها وأخذ يحضر محاضراتها كان اصغر منها بالاربعين من عمرها وكان قضى في التحف عشرين سنة يخطب ويعلم . وظلت الصداقة بين الفيلسوفة الوثنية والاسقف المسيحي نقية الاسباب وثيقة العرى فلا هيباسيا اعتنقت الدين المسيحي ولا سينيسيوس خلع ثوب الكهنوتي

في سلوكها ولبسها ومعيشتها كانت هيباسيا آية في الجمال والبساطة . واني لأتخيلها واقفة امام تلاميذها بثيابها البيضاء المهلهلة وقد عقصت شريطة من الحرير شعرها وسدلت على كتفها ذيل ردائها وفي رجلها نعل يوناني بسيط . فلا قبعة تثقل رأسها ولا مشداً يضغط رئتيها وقلبها ولا كعباً عالياً يضر بعمودها الشوكي وبمجموع اعصابها . آية هي في البساطة والبراعة والجمال . وحبذا لو عادت نساء اليوم الى الزي اليوناني البسيط . خمسة اذرع من الثياب المهلهلة خير من عشرين ذراع من الحرير الثقيل المخيط على اخر « موده » فلا تثقلي وتشدي جسمك

سيدتي كما لو كان جسم عدوك . ناهيك عن مسألة التوفير والاقتصاد . ولكن لسنا الان في موضوع « المودة » والاقتصاد . لنعد الى هباسيا . لقد قربنا مما يثير الاحزان في امرها . لان هذه العالمة الحكيمة التي كان يكرمها الشعب الاسكندري الراقي ويستفتيها العلماء ويستشيرها في امور السياسة الحكام لم تنج من كرم المتعصبين المسيحيين . فبعد ان خدمت العلم والفلسفة اربعين سنة ماتت موت الشهداء على اقطع طريقة وانكرها . كما ستعلمين

٣

سيريل البطريرك

لم تكن الاسكندرية في ذلك الزمان معهد العلوم العالية فقط بل كانت ايضاً عش الكلام والفلسفة واللاهوت وكان بطريركها سيريل من الذين اشتهروا بالفصاحة والتعصب والمعاندة والمكابرة ارتقى الى كرسي البطريركية وهباسيا في اوج مجدها وقد تجاوزت الخمسين من عمرها ومنذ ذلك الحين الى ان قضت لم يطب له عيشاً ولم يسغ له شراباً لان امره في التعصب مشهور لدى المؤرخين . فبين هي كانت تلقي دروسها في العلم والفلسفة على الالوف من الطلبة كان هو يهيج من على منبره خواطر النصارى على اليهود . ولا يخفاك ان البطريرك في ذلك الزمان كان كالحاكم المدني وكانت له فرقة من الجنود تنفذ اوامره . على ان محافظ البلد أورستس لم يستطع صبراً وسكوتاً على طرد اليهود ونهب بيوتهم ومعابدهم وتدميرها فناهضه مدة ولكن بدون فائدة . لان المحافظ صاحب سلطة واحدة والبطريرك صاحب سلطتين . وضعيفان يغلبان قوياً . وفي النزاع بين الاثنين كانت هباسيا تميل الى جهة صديقها المحافظ الذي كانا يستشيرها في اموره المهمة . فاصبح النزاع والحال هذه بين ثلاثة اشخاص واخذ يشتد ويتفاقم امره الى ان حدث الحادث

الفاضل الذي أودى بحياة هيباتيا بدون العلة الأولية . ولا نظنني ان هذا هو السبب الوحيد الذي اثار خاطر سيريل على هيباتيا . ان الخلاف بينهما لا بعد من هذا . اجل انه هو نزاع بين العلم والجهل . بين التعصب والفلسفة . بين الحرية والاستبداد . بل هو خلاف بين الحقد الوثنية التي اسست حياتها على فضائل الدين المسيحي دون ان تعتنقه وبين البطريرك المسيحي الذي استخدم الدين واسطة لشفاء غليله ونيل مآربه واثارة بلبلة قوية جداً . حتى ان الحافظ أرسنس اشفق على منصبه وعلى حياته من تعصب البطريرك واستبداده ولكن ذنب الحافظ ذنب عبادي فقط وذنب هيباتيا عبادي وعلى معاً اتخذ اخنارها سيريل هدفاً لحقده واضطهاده . وسائل البك حادثة قتلها كما رواها الواقفون في روايتها المؤرخون

عندما كانت هيباتيا سائرة في عربتها من الكنيسة وفي نفسها بيتها تصدد لها جمهور من الغوغاء مقدمتهم بطرس القارئ الذي كان له اليد الطولى في هذه الجريمة الفظيعة المنكرة . فاعترضوا سبيل العربة وجروها الى السيزاريوم . وتركوا عنها كل لباسها وجروا جسدها العاري بصدف الحجارة وقيل بشقف من الفخار . ثم قطعوها إرباً إرباً وذهبوا بها الى خارج المدينة وحرقوها هناك . وذلك في السنة ٤١٥ على عهد الملك تيودوسيوس الثاني . وقد يختلف المؤرخون ويختلفون في حسب نزعاتهم السياسية ومبادئهم الدينية ولكن ما من واحد منهم يرتاب في ان البطريرك سيريل هو العامل الخفي على قتل هيباتيا . وقد قال ثيودورت وهو من ابناء الكنيسة المشهورين ان لسيريل يداً خفية في هذه الجريمة . وقال غيره ان لم تقتل هيباتيا بأمر واضح من سيريل فقتلت بعلمه وارادته

وهكذا هيباتيا أفضل بنات الحسب الشهير الذي شيده وفيق الاسكندر وكانت نهاية الفلسفة والعلم في الغرب . بل في قتلها تم التعصب النصر على العلم

والتهذيب . فقفل باب الدور الذي فتحه بطليموس بالاسكندرية كما قفل في اثينا على عهد بوسنياس . فكان جيليسيوس اخر الفلاسفة في بلاد اليونان . وكانت هيباسيا اخرهم في بلاد مصر . وبين هاتين الخاتمتين المكرمتين تبتدىء ما يدعى في التاريخ بالاجيال المظلمة واستمر احدى عشر قرناً

الفريكه لبنان امين ريحاني

المرأة والاحسان

عود على بدء

كثرت احسانات المرأة كثرة جميلة تؤيد ما كتبناه عنها في الحسنا السادسة مما فطرت عليه من الجود والكرم وتوضح بأجلى بيان ما انطوى عليه قلبها الرقيق من العواطف الكريمة والشعور السامي وما تزين به من اللطف والشفقة والحنان . وتنوعت احسانها بتنوع حاجات الامم فلم تقتصر على المدارس للتعليم والتهذيب فقط بل تناولت اموراً عديدة يحتاج اليها الناس احتياجهم الى ذلك

وقد كان للمرأة الاميركية يد طولى في هذه السبل المباركة فاقت بها على غيرها من بنات جنسها الا بعض الفرنسويات كالبارونة هرش التي جمعت مجلة المقتطف مرة فائدة واحدة ما احسنت به الى المشاريع العمومية فبلغت مليونين وثلاثين الف ليرة وقدرت ان ما انفقته وزوجها في سبيل الاحسان يبلغ ٢٥ مليون ليرة . او البارونة نتائيل روتشيلد التي وهبت امتها اكثر ما جمعته من الصور النفيسة منها صورة ثمنها ٢٤ الف ليرة عدا عن هباتها للمآلية العديدة . او مدام او ديفره التي وقفت مبلغاً وافراً يعطى ريعه جوائز للمشتغلين باكتشاف علاج للسل . او امثالهن من الانكليزيات والالمانيات